روضة الحكايات!!
(١٢)

إمامُ الحرمين الشريفين

الدكتور
محمد عمر الحاجي

obeikandl.com

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

obeikandl.com

في رحاب القرن الخامس الهجري

(عبدالرحمٰن) شابٌ يحبّ الدراسةَ والمطالعةَ والبحْثَ ، يُمضي غالبية أوقاته بين الكتب والمراجع ، لا يصله خبرٌ عن ندوة ثقافيةٍ ، أو محاضرةٍ علمية ، أو مؤتمر فكري إلا ويسرع لحضوره... ، ويوفّر من مصروفِه الشخصيِّ ليشتري كتباً ومجلات ، ويفرح كثيراً عندما تقترب معارضُ الكتب ، وخاصةً المعرض السنوي الذي تقيمه مكتبة الأسد بدمشق...

تسأل والدته عن أحبِّ هديةٍ إلىٰ قلبه يحبّ أن تشتريها له ، وذلك بمناسبة تفوّقه في المدرسة ،

فيبتسم... ، ويقول : وهل هنالك هديةٌ أجملُ وأحبّ إلىٰ القلوب من هدية الكتب ؟!

لكنّ الجميلَ في الحكاية ، أن (عبدالرحمٰن) استطاع أن يكوّن صداقاتٍ مع شباب علىٰ شاكلته ، وكأنه بذلك يطبّق المثلَ القائل (إن الطيور علىٰ أشكالها تقعُ)!!

فهو يتبادل مع أصدقائه هدايا من نوعٍ واحد ، هو الكتب...

وفي الأسبوع الماضي أرسل إليه صديقُه (محجوب) ـ وهو من الأصدقاء القدامىٰ ـ كتاباً ضخماً.. وكتب علىٰ الورقة الأولىٰ : إلىٰ الصديقِ الوفيِّ (عبدالرحمٰن)... أرجو أن تتقبّل هديتي المتواضعةَ ، وذلك بمناسبة فوزِك في امتحاناتِ هذا العام ، وقد تعمّدت أن تكون الهديةُ كتاباً ،

وذلك لعلمي السابق بحبّك للكتب... صديقك (محجوب)...

... . ولما وصل الكتاب إلىٰ (عبد الرحمٰن).. حمله وانطلق إلىٰ حديقة البيت وجلس تحت شجرةِ التوتِ الكبيرة ، وراح يقرؤه بِنَهَمٍ ،.. وبعد قليل أَخرجَ بعضَ الورقات... وقلماً... وراح يُسجّل بعضَ الملاحظات... .

... . وحان وقت العَشاء.. واجتمع أفرادُ العائلة حولَ المائدة ، فقالت (علياء) : ولكن (عبد الرحمٰن) لم يحضر بعد .

وتلفت الوالد يَمْنَةً ويَسْرَة ، ثم قال : حقاً ، أين (عبد الرحمٰن).. ؟

هزّت الوالدةُ رأسَها وقالت : لقد بحثتُ عنه في غرف البيت فلم أجدْه .

لعلّه غارقٌ بين المجلّدات والكتب!!

أمّا (سوسن) التي كان لها أسلوب بوليسيٌّ في البحث ، فقد انطلقت تبحث بين الأشجار وتقفزُ فوقَ الأعشاب ، وتنظرُ بين الأغصانِ ، وتقترب من ضفافِ البحيرة الكبيرة... ثم ترفعُ رجليها عن الأرض فتنظر في المياه.. فلا تجد أخاها..!!

قالت في نفسها : حتماً سأجده مستلقياً تحت إحدىٰ الشجراتِ الكبيرةِ ، وقد حَمَلَ أحدَ كتبه ، وراح يقرأ فيه!

تقدمت (سوسن) باتجاه شجرة التوت... ولما اقتربت منها.. رأتْ كرسياً... لكنها لم ترَ أخاها عليه... ، فقالت : هذا الكرسيُّ يدلّ علىٰ وجود (عبد الرحمٰن) في هذه البقعة التي تستظلّ بظلال هذه الشجرة المباركة...

ولما اقتربتْ عدّةَ خطوات رأتْ عجباً! لقد رأت (عبد الرحمٰن) مستلقياً علىٰ الأعشاب ، وقد سقط

الكتاب علىٰ صدره... وبدون شعورٍ صرخت .

... يـــا والـــدي.. يـــا والـــدي... لقـــد مـــات (عبد الرحمٰن) !!

ووصل الصوتُ إلىٰ مسامعِ والدته... حيث كانت قربَ نافذةِ المطبخ... . فصاحت : ماذا حدث يا (سوسن)... هل وجدتِ (عبد الرحمٰن)... ؟

... . وحدث ضجيجٌ في البيت... فهذا يقذف نفسَه من النافذة مسرعاً نحو الصوت ، وتلك تركضُ وهي تبكي... أما الوالد فقد راح يردّد : لاحول ولاقوة إلا بالله... .

ولما اجتمع أفرادُ العائلة تحت شجرة التوت ، نظر الوالد إلىٰ (عبد الرحمٰن) وناداه : قمْ يا بنيّ... لقد أَفْزعْتَنا...

واستيقظ (عبدالرحمٰن) من نومه ، فرأىٰ الكتابَ علىٰ صدرِه ، و إخوته و أخواتِه.. ووالدته..

ووالده قد اجتمعوا حولَه.. فقال : ما لكم... ماذا حدث ؟!

فوضعت والدتُه يدَها علىٰ كتفه وقالت : لقد نصحتُك مرّاتٍ عديدة أن تخفّف من ساعات المطالعة ، وترتاح « فإن لجسمك عليك حقاً »...

... وأخرج (عبد الرحمٰن) من جيبه بعضَ الأوراق... وأراد أن يقرأ ما فيها ،... فانتزعَها والدُه من يده وهو يقول : أما كفاكَ يا عبد الرحمٰن.. الطعامُ يكاد يبرد... وأنت تريد أن تقرأ لنا ما كتبتَ!!

وبعد تناول الطعام ، وأثناء شرب الشاي... قال (عبد الرحمٰن) ، أودّ أن تستمعوا إليّ قليلاً ، فقد كتبتُ موجزاً من الكتاب الذي كنتُ أقرؤه ، وهو يحكي لنا أهمَّ أحداث القرن الخامس الهجري.. وأخرج الأوراق من جيبهِ وراحَ يقرأ منها :

انفصلت كثيراً من الدويلات عن جسم الدولةِ العباسية ، مثل دولة الحمدانين ، ودولة بني بويه ، والدولة الغزنوية ، ونحو ذلك ، مما أضعفَ الدولة العباسية.. ، إضافة إلىٰ الترفِ الماديِّ والبذخِ والتفاوت الطبقي ، وانتشارِ الرَّقيقِ في المجتمع.. ، وتَفَشّي مجالس اللهو و...!!

إضافةً إلىٰ ظهور الفِرَق الإسلامية المختلفةِ ، لكن الجميل في الأمرِ أن العلمَ بقي مستمراً في خطّ الانتشار ، فظهر من العلماء الإمام (القفّال) و (الماوردي) و (الشيرازي) و (الجويني) و (أبو يعلىٰ الفرّاء) و (البيهقي) و (ابن حزم) وغيرهم...

* * *

إمام الحرمين... لكنه من بلاد فارس!!

وسأل الوالد ابنه (عبد الرحمن) : فهلا حدثتنا ـ بشكل مختصر ـ عن أحد العلماء الأعلامِ ، الذين برزوا في القرن الخامسِ للهجرة ؟

... وفرح (عبد الرحمن) بذلك ، وأخرج بعضَ الأوراق من جيبه الثاني ، وراح يقرأ منها ما يلي :

وُلد الإمامُ الجويني (عبد الملك بن عبد الله) في (نيسابور) ، وذلك سنة (٤١٩هـ) . وشاء الله أن يكون مولدُه في بيئةٍ علميةٍ عريقة ، فوالده كان إماماً في كثيرٍ من العلوم الإسلامية ، كالفقه والتفسير و... ، إضافة إلىٰ أنّ (نيسابور) كانت وقتئذٍ مليئةً بالمدارسِ العلميةِ والعلماءِ المشهود لهم .

وبعد فترة من الزمن، ترك الجُوينيُّ بلدَه واتجه نحو بغداد، فقابل كبارَ العلماء فاستفاد منهم، واستفادوا منه، ثم رحلَ إلىٰ الحجاز، واستقرَّ به الحالُ بين الحرم المكّي والحرم المدنيّ، فجمع المذهب الشافعيَّ في كتاباته، وعقد حلقات تدريس قرب الكعبة.. وقرب القبرِ النبوي الشريف... حتىٰ أطلقَ عليه العلماء والعامة لقبَ (إمام الحرمين) .

لذلك كثُر تلامذته ومريدوه، وعلىٰ رأسهم الإمام الغزالي...

وأما إنتاجه في مجالات التصنيف فكان أمراً عجيباً، فقد كتب في عدة مجالات. منها: في أصول الفقه: (كالبرهان في أصول الفقه) و(رسالة في التقليد والاجتهاد) .

وفي الفقه المقارن بين المذاهب: مثل كتابه:

(غنية المسترشدين في الخلاف) و(مغيث الخلق في ترجيح القول الحق)...

وفي العقيدة وأصول الدين ، مثل : (لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنّة والجماعة) و(رسالة في أصول الدين)...

ويُعَدُّ كتابه (غياث الأمم في التياث الظلم) من أهم وأفضلِ كتبِه ، خاصةً وأنه يتميّز من غيره من الكتب بأنه غزيرٌ في المادة العلمية ، وتبدو فيه شخصيتُه الجريئة ، حيث لم يتزلّفْ لأحد ، ولم يهادنْ أحداً ، بل تَلَمَّسَ قول الحق ولو كان مرّاً .

* * *

من فضائل أعماله

تابع (عبدالرحمٰن) حكايته عن الإمام الجويني ، فقال :

وهكذا اجتمعَ العلمُ مع العملِ في شخصيتِه ، وكذلك حُسْنُ العلانيةِ و حُسنُ السريرة .

فعُرف بالأخلاقِ الحميدة ، إلىٰ درجة أنه وُصِفَ بأوصافٍ عجيبة ، وحدَّثَ عن سلوكه أيضاً بأحاديثَ عجيبة ، من ذلك قوله :

(أنا لا أنام ولا آكلُ عادة ، وإنما أنام إذا غلبني النومُ ليلاً كان أو نهاراً ، وآكل إذا اشتهيتُ الطعام أي وقتٍ كان ، ولا أجدُ لذتي ولا نزهتي إلا في مذاكرةِ العلمِ وطلب الفائدة من أيّ نوع كان...)!!

وكان في كثيرٍ من أوقاتِ الليل يقفُ بين يدي الله ، تالياً لكتابه ، مستغفراً من ذنوبه ، متهجّداً ، داعياً ، وذلك ضمن قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] .

ولذلك كان إذا جلس مجالِسَ الوعظِ والإرشاد ، راح يتحدّث عن التفكّرِ و الاعتبارِ ، بالنفس ، بالنبات ، بالحيوانات ، بكل ما خلق الله سبحانه...

وبما سيكون من نعيمٍ أو عذابٍ يومَ الدين... فكانت العيونُ تَذْرفُ الدموعَ .

وكان حالُ الحاضرين من الهيبةِ والوَقارِ ، وكأنْ علىٰ رؤوسهم الطّيرُ...

علماً أن الإمامَ كان من التواضعِ بمكان ، بحيث إذا دخلَ شخصٌ إلىٰ المسجد أو المدرسة أو المكان الذي كان يُلقي فيه الدروسَ ، فإنه لا يستطيع أن يميّز بين الإمام و بين تلامذته!

بل كان كثيراً ما يقوم احتراماً لبعض تلامذته ، إضافةً إلىٰ كونه يمدح مخالفيه وحسّاده ، ويعترف للآخرين بالفضلِ والعلمِ ، ويكشف عن الحقِّ مهما كانت النتائج ، وهذه الميّزات قلّما توجد عند كثيرٍ من الناس .

* * *

obeikandl.com

إلىٰ رحمة الله يا أبا المعالي

وبعد كفاحٍ طويل ، قضاه الإمام بين التصنيف والتدريس ، والبحث والخطابة ، أُصيب بمرضٍ خطير ، فَضَعُفَ جسدُه ، وفَتَرَتْ همّته ، وكانت إرادة الله وقضاؤه ، فأسلم الروح إلىٰ خالقها ، وذلك في سنة (٤٧٨هـ) ، فصلّىٰ عليه الناسُ ، ودفنوه في (نيسابور) ، فرحمه الله رحمةً واسعة ، وجزاه كلَّ خير ، ونفعَنا بعلومه ، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *